التنمية المُستدامة

Mohamed Rabie

تّعاني الدول النامية عامة من مشكلات اقتّصادية واجتّماعية وثقافية وسياسية وبيئية، وتّواجه تّحديات كبيرة تُبطّئ حركتّها نحو التّنمية والتّصنيع واللحاق بالعصر، كما أن المعونات والقروض التّي قدمتها المؤسسات الدولية المعنية بالتّنمية لم تُفلح في تّحقيق أهدافها المنشودة؛ إذ لم تّستّطع تّلك الأموال التّي تّقدَر بمئات المليارات من الدولارات تّحسينَ أداء الاقتّصادات الوطنية بشكل يجعلها قادرة على النموّ الذاتّي .وفي الواقع، بعد نحو 75 سنة من العمل في العالم الثالث، لم يستّطع البنك الدولي مساعدة دولةٍ واحدة على تّحقيق تّنمية اقتصادية أو تحول ثقافي، وبالتّالي ليس لديه قصة نجاح يمكن الاستّفادة منها أو تقليدها. من ناحية ثانية، جاءت سياسات إعادة الهيكلة الاقتّصادية التّي فرضها صندوق النقد الدولي بناء على تعليمات من أمريكا قبل نحو 40 سنة لتّنقل العديدَ من الدول النامية من حالة سيئة إلى حالةٍ أسوأ تتّصف بزيادة حِدة الفقر، وتّوسعة فجوتَّي الدخْل والثروة بين الفقراء والأثرياء، ورفع معدّلات البطالة، وشُيوع الفساد، وبيع الكثير من ثرَوات البلاد لشركاتٍ أجنبية، والغرق في بحر هائج من الديون التي يصعب سدادها، وذلك لأن فوائد القروض تتراكم فيما تعجز الاقتصاديات عن النمو لتوفير المال اللازم لسداد الديون المتراكمة. تحاول هذه الدراسة التعرف على أسباب فشل نظريات التنمية التقليدية والمؤسسات الدولية في فهم ومعالجة أسباب تخلف الدول النامية في المجال الاقتصادي.

في ضوء التطورات المذكورة أعلاه، يتم عادة تقليص دخل الدولة، وإضعاف قدرتها على التحكم في اقتصادها الوطني، واضطرارها بسبب ذلك إلى الاقتراض من المنظمات الدولية وأسواق المال العالمية لمواجهة الطوارئ وتنشيط عمليات التنمية والنمو. ومع إخفاق المعونات والقروض الدولية في تّحقيق أهدافها، فإن نظريات التّنمية التي تم تطويرها في خمسينيات وستينيات القرن الماضي تكون قد أثبتت فشلها في تّفسير أسباب التّخلف، وتّحديد أوجهه المتعددة، ورسم خطط للتغلب عليه وتحقيق التنمية. وهذا يشير بوضوح إلى أن الفرضيات التّي قامت عليها تّلك النظريات كانت إما خاطئة أو ناقصة، الأمر الذي جعل السياسات التّنموية وبرامج الاستثمار المنبثقة عنها تُخفق في تّحقيق أهدافها في وقت عصيب بسبب عدم وجود نظريات بديلة يمكن اللجوء إليها. وقد اكتشفت هذه الحقيقة بعد أن اطلعت على نظريات التنمية التي كانت سائدة في ذلك الزمن حين كنت طالبا في الجامعة في منتصف ستينيات القرن العشرين أحاول الحصول على درجة الدكتوراة في اقتصاد التنمية. ويعود السبب في فشل النظريات المعنية لكونها نظريات كتبها أشخاص ينتمون لدول استعمارية، خاصة بريطانيا وأمريكا، ظنوا أن مجرد قيامهم بزيارة بعض

الدول التي استعمرتها بلادهم يكفي لفهم الأوضاع الحياتية والثقافات السائدة فيها لكتابة وصفات تنموية تمكنهم من النهوض وتحقيق التنمية والتقدم. وهذا جعل نظريات التنمية فيما بعد تقتصر على الحديث عن قضايا فرعية مثل الفساد السياسي والاقتصادي وأثره على التنمية، وغياب الحرية ومشاركة الشعوب في عمليات التخطيط والتنفيذ المتعلقة بالبرامج التنموية، وانخفاض مستوى التعليم وشيوع الأمية، وانتشار الكذب في تلك المجتمعات مع عدم معرفة أسباب تلك الظاهرة السيئة.

التّنمية مفهوم اقتّصادي يعني تّوظيف تّكنولوجيا التّصنيع والإدارة الحديثة لتّحقيق الكفاءة في استّخدام الموارد الطبيعية والبشرية المتّاحة، وذلك من أجل تّنشيط الاقتّصاد الوطني وتّحسين نوعيةِ الحياة بوجه عام. في منتصف القرن الماضي، أُستُّخدِم تّعبير" النموّ الاقتّصادي" ليشير إلى التّنمية، ما جعل هدف التّنمية يَقتّصر على تّحقيق تّغيُر كمّي في الناتّج القومي الإجمالي .ولهذا جاءت نظريات التّنمية لرسم الخطوات الكفيلة برفع معدَلات النموّ الاقتصادي، والتّحول من الاعتّماد أساسا على الزراعة إلى الاعتّماد أكثر على الصناعة والتجارة. لكن التنمية، كما ثبت فيما بعدم تتجاوز بكثير النمو الاقتصادي من حيث المتطلبات الفنية والبشرية والإنجازات المستهدفة والممكنة.

في سبعينيات القرن الماضي، وفي ضوء ارتّفاع معدلات النمو الاقتّصادي في الدول الصناعية عامة، ظهر تّيار فكري يقول إنه لا يمكن أن يحافظ العالم على تّلك المعدلات، لأنها تّستّنزف المواردَ الطبيعية المتّوفرة بسرعة، ما يجعلها تُّهدد حياة البشر بالخطر. ولقد جاء تّقرير برونتّلاند Brundtland في عام 1987 ليُحذر من مغبّة السمَاح لبعض الدول والشركات باستّنزاف تّلك الموارد وتّلويثِ البيئة وتّهديد مستّقبل الأجيال القادمة .وبدلاً من مبدأ" النموّ الاقتّصادي"، دعا التّقرير إلى تّبني استّراتّيجيات تّنموية مغايرة تّقوم على" التّنمية المُستّدامة"، أي تّحديد معدلات نموّ يكون بالإمكان الحفاظ عليها من دون إلحاق ضَرر بالبيئة أو بحقوق الأجيال القادمة، أو استّنزاف الموارد الطبيعية والمعدنية النادرة .وتّبعاً لذلك، أصبح مفهوم التّنمية المُستّدامة مِعياراً أساسياً للبنك الدولي والمنظمات التي تّعمل في مجال التّنمية في العالم الثالث، ما جعل التّنمية تّستّهدف حدوثَ تّغيير كمّي في الاقتّصاد، وتّحول نوعيّ في حياة المواطنين،مع الحفاظ على البيئة.

وبناء على ما سبق، يمكن تعريف التّنمية بأنها " عملية مجتّمعية تّستّهدف تّوظيف الموارد البشرية والطبيعية والتّكنولوجية المتّاحة لنقل مجتّمع تّقليدي يعاني عوارض التّخلف الثقافي والاجتّماعي والعلمي والفكري والجمود الاقتّصادي إلى حالة تّتّصف بتّنمية مُستّدامة تّقوم بتّحرير الناس من الحاجة المادية ورفع مستّوى حياة كافة أفراد المجتّمع". الأمر الذي يعني أن هدف التنمية المستدامة هو جعل الإنسان أداة العملية التنموية والمستفيد الأول من

إنجازاتها .يقول جوزيف ستيجلتز في هذا السياق أن" التّنمية عملية تّشمل كافة أوجه الحياة في المجتّمع، يشارك فيها جميع المواطنين، والأسواق والدولة والمنظمات غير الحكومية، والتّعاونيات والمؤسسات غير الربحية."

(Making Globalization Work, Joseph Stiglitz, 2006, 26)

ولما كان هدف العملية التنموية هو تّمكينَ المجتّمعات الزراعية من اقتّحام عصر الصناعة، فإن خطط التّنمية لا بدَ من أن تقوم بتّطوير نظم الحياة في المجتّمع الزراعي، وإعادة هيكلة المؤسسات التّي ينشط الناس من خلالها لخلق بيئةٍ اجتماعية مواتّيةٍ لحُدوث تّقدم اقتّصادي وتّحول ثقافي وتّطور علمي وتكنولوجي. إن انتّقالَ مجتمع من عصر لآخر يعني حدوث نهضةً حضارية تقوم بتطوير الثقافة الوطنية وطريقة الحياة التقليدية ونمط الإنتّاج، وإعادة تشكيل الهياكل الاجتّماعية والاقتّصادية والسياسية، وخلق واقع جديد على أسس جديدة .لذلك، لا بد من النظر إلى التّنمية بوصفها نقلة حضارية، والنظر إلى كلِ محاولةٍ لتّحقيق طفْرة حضارية بوصفها تّنمية مجتّمعية شاملة. وهذا يعني أنه ليس بالإمكان تّحقيق" نهضة اقتّصادية "من دون حدوث تّحوُلات ثقافية واجتّماعية شاملة، كما أنه ليس بالإمكان تّحقيق" نهضة ثقافية واجتماعية "من دون حدوث تّحوُلات اقتّصادية نوعية وعميقة.

يمكن تّعريف الاقتّصاد باختّصار شديد بأنه" علم إدارة مصادر الثروة الطبيعية والمالية والبشرية المتّاحة في المجتّمع". إذ يقوم كلُ مجتّمع في العادة بتّوظيف ما لديه من مواردَ طبيعية، أي أرض ومعادن ومياه وطاقة، وموارد بشرية ومالية، ومعارف علمية، وفنون تّكنولوجية وإدارية لبناء اقتصاد وطني يتصف بقدرة إنتاجية مرتفعة. كما يقومُ المجتّمع أيضا من خلال تّوزيع المنتّجات وتّوفير الخدمات للمواطنين مثل التّعليم والعِناية الصحية بالتّجاوب مع احتّياجات المجتّمع وتّحسين نوعية الحياة بالنسبة لأعضائه. ولمّا كانت عمليات تّعزيز القُدرة الإنتّاجية وزيادة الإنتّاج تُوجبُ تّوسعة الأسواق الاستّهلاكية لتّصريفِ المنتّجات المختّلفة، فإنَ العلاقة بينَ الإنتّاج والاستّهلاك، أي :بين القُدرة الإنتّاجية والقُدرة الاستّهلاكية تّقوم على التّأثير المتّبادل .إذ فيما تّقوم الأسواق الاستّهلاكية بزيادة الطلب على مختّلفِ البضائع وتّشجيع المستّثمرين على الاستّثمار وزيادة الإنتّاج، تّقوم عمليات التّوسع في الإنتّاج بخلق وظائفَ كثيرة وتوفير مصادر دخل جديدة تُمكِن المستّهلكين من شراء المزيد من البضائع .وهذا يعني أن الاقتّصادَ هو العلم الذي يساعدنا على تّوزيع الموارد المتّاحة على أوجُه الاستّثمار المختّلفة بطريقةٍ تّحقق أفضل العوائد المادية الممكنة، وتّوزيع المنتّجات على أوجهِ الاستّهلاك المتّعددة بطريقةٍ تّحقق تّحسين نوعية الحياة بالنسبة لأكبر عددٍ من المواطنين.

ولقد جاءت العولمة في تسعينيات القرن العشرين لتّدويل أسواق الاستّهلاك والمال والاستّثمار والتّجارة، ما جعَل العلاقة بين القُدرة الإنتّاجية والقدرة الاستّهلاكية عالمية الأبعاد .لذلك لم يعُد بإمكان خطط التّنمية الوطنية

تّحقيق أهدافها من دون أن تّأخذ في الاعتّبار أحوال الأسواق العالمية وما يسود تّلك الأسواق من منافسةٍ واحتّكار ونمو اقتصادي وتنوع ثقافي، والتّخطيط بناء على تّوجهات المستّهلكين المستّقبلية في كل مكان .وفي الواقع، أصبحت العوامل الخارجية ذات تّأثير كبير في قوى التّغيير الداخلية، فيما أصبحت عناصرُ التّنمية الداخلية ذاتَ تّأثير كبير على تّوجهات الاستّثمارات الخارجية، ما جعل بالإمكان تّوظيفَ الأسواق الوطنية لجلبِ استّثماراتٍ أجنبية، وتّوظيف الأموال الأجنبية لتّنمية الأسواق الوطنية.

الثقافة والتنمية

لما كانت سلوكيات مختّلف الفئات الاجتّماعية والشعوب والدول تّميل نحو التّنافس، وأنها تّعمل ضمن بيئة عالمية مُتّحولِة باستّمرار، فإن على الدولة أن ترسم أهدافها وبرامجها بشكل مرن يُتيح لها التّعامل مع المُتّغيرات المفاجِئة ومواجهة التّحديات المستّجدة .إن قيامَ إنسان برسْم أهدافٍ يعتّقد أن بالإمكان تّحقيقها ينطلق عادة من إحساس بضرورةِ التّغيير أولا، وإيمان بالقدرة على إحداثِ التّغيير المطلوب ثانيا. وهذا يُعتّبر تّحدياً للإنسان العربي الذي تَّعوَد على الاتّكالية والتّواكل، وعاش قروناً يبحث عن الأمان خلف أسوار القناعة والتّهرب من واجب تحمل المسؤولية بشقيها الشخصي والمجتمعي. ومع كثرة التّحديات التّي تّواجه الإنسانَ وتّفرض نفسَها عليه، فإن التّحديات النابعة من إحساس ذاتّيٍ بوجودِ خطر قادم تُعتّبر أهم التّحديات وأكثرها تحفيزا للإنسان على التفكير والعمل .من ناحيةٍ ثانية، حين يتّبلور إحساس مجتّمعي طاغٍ بأن المجتّمع يعيش أزمة داخلية، فإن ذلك يعني أن المجتّمع يملك ما يكفي من الوعي لإدراك أنه أمام تّحديات صعبة عليه أن يواجهها .وهذا من شأنه تّعزيز روح التّحدي والتّصدي في النفس وفي المؤسسات المجتّمعية، وتّقوية الإيمان بالقُدرة الجمَاعية على تّجاوز العقبات والمحن وتّحقيق الأهداف المنشودة . وحين ينجَحُ المجتّمع في تّحقيق أهدافهِ، فإن عملية التّنبؤ بالتغيرات القادمة تّصبح عملية مؤسسية تّعمل من دون تّوقف، وتّقوم بتّطوير النظم الحياتّية استّعداداً لمواجهة ما قد يَستّجدُ من تّحدياتٍ مستقبلية وأزمات دولية.

إنَ الإحساسَ بالتّحدي والتّحرك الواعي لمواجهته هي قضايا تّرتّبطُ ارتّباطاً وثيقاً بقيم المجتّمع وثقافتّه وتّجربتّه التّاريخية وتّركتّه الحضارية .إذ تّجسد الثقافة والتّاريخ والتّراث مخزون التجربة المتوفرة لدى المجتمع، وخريطةَ طريق تُقدم لكل مجتّمع تقليدي نموذجاً لرؤيةِ واقعه، ونظرية لتّقييم ظروفِ حياتّهِ، وطريقة لمواجهة تحديات زمنه والتّعامل مع غيره من شعوب .ويتّم التّعامل مع المشكلات عادة إما بالاستّسلام لها وقبولِ تّبِعَاتّها، أو بمواجهتّها ورفض الرُضوخ لها .فالتّواكلُ طريقة لتّجاوز العقبات من خلال التّظاهر بعدم وجودها والتّهرّب الواعي من استّحقاقاتّها، فيما يشكل التّحدي طريقة أخرى تّدفع في اتّجاهِ التّضحية من أجل الإصلاح والتّغيير .ويُشير التّاريخ إلى أن الشعوبَ التّي

رأت في التّحديات مشكلات دفعتها نحو التّقوقع كانت أكثر الشعوب قابليةً للاستّعمار، فيما كانت الشعوب التّي واجهت التّحديات بشجاعة كانت أكثر الشعوب قدرة على تجاوز المحن وتّحقيق التّقدم .إنَ ميل الشعوب العربية نحو التّواكل والقبول بالأمر الواقع وإطاعة أوامر قادة تّقليديين من دون سؤال، جعلها من أقلِ شعوب العالم قدرةً على مواجهة التّحديات الداخلية والخارجية على السواء، ومن أكثرها قابلية للاستّعمار والاستّغلال .ولما كانت التحديات الداخلية والخارجية تشكل مخاطر وفرص في آن واحد، فإن الشعوب التي تنظر إلى التحديات بوصفها مخاطر تتجه عادة نحو الانطواء على النفس والاستسلام، فيما تتجه الشعوب التي تنظر إلى التحديات بوصفها فرص نحو اغتنام الفرص المتاحة، والحصول على الكثير أو القليل من المكاسب التي تسهم في تحقيق التقدم.

حين بدأت في صياغة نظريتي الخاصة بالتّنمية المستّدامة رجعت إلى تجربة الإنسان التاريخية، خاصة أثناء عصر الزراعة .وهنا اكتشفت أن المجتمع الزارعي عاش نحو عشرة آلاف سنة في حالة استقرار، إذ لم يتعرض لأزمات اقتصادية ولا لمجاعات واسعة النطاق، وذلك على الرغم من خضوع معظم المجتمعات حينئذ لنظام إقطاع ظالم . ولقد جاءت عملية الاستقرار نتيجة لوجود تّوازن بين أربعة عناصر محددة :الموارد الطبيعية، والسكان، والثقافة، وتّكنولوجيا الإنتّاج .إذ فيما كان النمو السكاني بطيء جداً بسبب انتشار الآفات والأمراض وعدم وجود رعاية صحية كافية، كانت الموارد الطبيعية الأساسية بكثرة، ويعود السبب في هذا الأمر لوجود أراضٍ زراعية كثيرة ومصادر مياة كافية لريها، فيما بقيت حاجات الإنسان محدودة بسبب ضعف معدلات النمو السكاني، وسيادة ثقافة القناعة ذات البعد الديني، ونجاح الإنسان في تّحسين مستّوى تّكنولوجيا الإنتّاج بشكل بطيء ساير الزيادة الطفيفة في السكان .

لكن التّوسع في التّجارة وتّحسُن مستّوى التّكنولوجيا مع بدايات القرن السادس عشر، أدّى إلى الإخلال بالتّوازن الذي حكم علاقة الموارد الطبيعية والسكان والتّكنولوجيا والثقافة مع بعضها بعضا لآلاف السنين .إذ فيما أدى تّحسن الخدمات الصحية إلى رفع معدلات النمو في السكان في معظم دول العالم، تّسبب ارتّفاع الوعي مع انتّشار التّعليم في زيادة حاجات الإنسان وتّطلعاتّه، وبالتّالي زيادة الضغوط على الموارد الطبيعية المتّاحة .من ناحية ثانية، فيما كانت الحاجة هي أم الاختّراع في عصر الزراعة، جاءت الثورة الصناعية وما رافقها من تطورات علمية وتّكنولوجية ومعلوماتّية متلاحقة لتّجعل الاختّراع أبَ الحاجة وأساسها، إذ مع تّقدُم عمليات التّصنيع والعلوم والتّكنولوجيا اتّجهت عمليات الاختّراع لتّصنيع بضائعَ جديدة خلقتْ حاجاتٍ لدى الإنسان لم تّكن موجودة أو معروفة من قبلُ، ما جعل الضغوط على الموارد الطبيعية تّزداد حِدة .ومع اتضاح هذه الحقيقة جاء مفهوم التنمية المستدامة بوصفه أداة وهدفا في آن واحد، أداة لتوفير حاجات الإنسان الأساسية من مأكل ومشرب وتعليم وخدمات صحية، وهدفا لحماية البيئة وعدم الإخلال بقدرتها على خدمة الإنسان وتلبية احتياجات الأجيال القادمة.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 60 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970 من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو : "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفيين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعي في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع

Links that give an idea about me and my interests.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed

Personal site; www.yazour.com